

## قراءة في الحراك الاجتماعي والسياسي بالمنطقة العربية:

حالتا تونس ومصر بعد الثورة

صغير حياة

طالبة دكتورالية في علم اجتماع الاتصال – جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

### المقدمة:

انتقل العالم وبشكل سريع من مجتمع الصناعة إلى مجتمع المعرفة، وأصبحت الشعوب والثقافات تعيش في قرية كونية إلكترونية، وفرضت العولمة أو النيوليبرالية مشروعها العالمي الجديد، وقد ترتب عن سيادة هذا النظام تحرير الاقتصاد وفتح الأسواق، وخضوع العالم العربي من المشرق إلى المغرب لهيمنة الشركات الأجنبية، وساد اعتقاد مفاده أن البديل الإقتصادي والسياسي والثقافي المفروض من المركزية الأوروبية سيضع حدا للحراك العربي بمختلف أشكاله، ويزول التفاوت الاجتماعي بين الأفراد، وتختفي مظاهر الفقر والحرمان والظلم الاجتماعي وتسود الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ...

عرفت المنطقة العربية بداية من سنة 2011 حراكا اجتماعيا وسياسيا سريعا، يهدف إلى تغيير أنظمة الحكم السائدة، وتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المزرية التي عانت منها شرائح كبيرة من أفراد المجتمع وبخاصة فئة الفقراء والشباب البطالين، وحظي هذا الحراك بأهمية كبيرة عند الباحثين والمفكرين العرب، واختلفت نظرتهم ومواقفهم تجاهه، حيث اعتبر بعضهم هذا الحراك ثورة اجتماعية بامتياز، بينما تصور البعض الآخر بأن هذا الحدث التاريخي نوع من الانتفاضات والاحتجاجات والتمرد والهبة الشعبية .. لا يرق إلى درجة مفهوم الثورة ذلك - في اعتقادهم - أن الثورة لا بد لها من أيديولوجية ثورية وطبقة اجتماعية ونخبة تقودها ويعتمدون في ذلك على التفسير الماركسي الكلاسيكي للثورة .

يستمد هذا الجدل والنقاش حول الحراك الاجتماعي بالمنطقة العربية مشروعيته من طبيعة الخلفيات الفكرية والسياسية والدينية التي يحملها هؤلاء الباحثون والمفكرون ومن خصوصيات هذا الحراك الذي يحدث في جغرافية عربية متميزة تاريخيا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا .  
نحاول في خضم هذا الجدل والخلاف الفكري بمختلف مستوياته حول الحراك الاجتماعي والسياسي في المنطقة العربية، قراءة إشكالية التداخل بين مفهوم الثورة ومفاهيم أخرى مرتبطة به ارتباطا وثيقا أولا، وقراءة في الخصائص المشتركة بين الثورات العربية وبخاصة الثورة التونسية والثورة المصرية ثانيا، وقراءة النتائج التي ترتبت عنهما ثالثا .

### التحليل:

#### 1- صعوبة تحديد مفهوم الثورة:

لا يتفق الباحثون والمفكرون على تعريف واحد لظاهرة الحراك التي تشهدها المنطقة العربية في المرحلة الراهنة والتي تميزها عن مفاهيم أخرى كثيرا ما توظف على أنها تتخذ معان مشابهة له، هذا اللبس وحتى الارتباك في تحديد المفاهيم يشترك فيه الباحث في العلوم الاجتماعية والسياسية ورجال الصحافة والإعلام فهم جميعا يوظفون مفاهيم الربيع العربي والانتفاضات والاحتجاجات والصحوات العربية والصحوات الإسلامية والهبة الشعبية ... وكأنها مشابهة لمفهوم الثورة.

ويقتر بهذه الصعوبة المعرفية كثير من المراقبين، وحتى مراكز البحوث العربية الاستراتيجيّة، التي خصصت مساحة فكرية كبيرة لمتابعة المشهد العربي الراهن في تحولاته وصراعاته الداخلية والإقليمية والدولية حيث: " يصعب في غمرة العواصف السياسية التي يشهدها العالم العربي منذ بداية العام 2011 تكوين أطروحة ناجزة تعكس ماهية التحولات، وترسم هويتها، وتحيط بمقدماتها وآلاتها. وحتى لو اتفقنا على التعامل بإيجابية مع العناوين الشائعة في الخطاب الإعلامية والسياسية والفكرية، لجهة تعريف التحولات بأنها ثورات فتحت باب التغيير الديمقراطي، فليس لنا أن نغفو عن تلك الشبكة الهائلة من التعقيدات والتداخلات، التي تدفع بالحدوث

الثوري نحو فوضى الاحتراب الأهلي والتفتيت الوطني . لذا فإن الرؤية الأكثر اقترابا من الواقع، تشير إلى أن الحادث العربي، في مجمل أقطاره، وساحاته، هو حادث يحوطه ضباب كثيف، لكنه مفتوح على احتمالات ووعود لا حصر لها<sup>(1)</sup>.

لا يعثر الباحث في العلوم الاجتماعية على تعريف واحد متفق عليه لمفهوم الثورة الذي يتطابق كثيرا مع مفاهيم أخرى، وبصفة خاصة مع مفهوم التمرد والعصيان وتحمل هذه المفاهيم دلالة أو ميزة مشتركة فيما بينها تتمثل في أنها تعني كلها ، ذلك التحول الجذري لكل النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية القائمة أو - على الأقل - تغيير النظام السياسي بطرق تحالف القوانين السائدة في المجتمع ف: "المقصود بالثورة هو تحرك شعبي واسع خارج البنية الدستورية القائمة ، أو خارج الشرعية ، يتمثل هدفه في تغيير نظام الحكم القائم في الدولة والثورة بهذا المعنى هي حركة تغيير لشرعية سياسية قائمة لا تعترف بها وتستبدلها بشرعية جديدة . هذا التعريف يميز الثورة عن الانقلاب العسكري بعربية عصرنا ، لأن الأخير لا يعكس تحركا شعبيا بالضرورة ، ولكنه يبقى الإمكانية مفتوحة لأن يشكل انقلابا عسكريا مدعوما شعبيا هدفه تغيير نظام الحكم . كما أنه يميز الثورة عن الانتفاضة الاحتجاجية الشعبية أو التمردات على أنواعها في حالة عدم طرحها مسألة تغيير النظام الحاكم"<sup>(2)</sup>.

وإذا كانت النظرة السائدة للثورة على أنها حركة شعبية تسعى لإسقاط السلطة السياسية من أسفل دون استعمال للعنف المسلح فإن ذلك ينطبق على الانتفاضات الشعبية التي شهدتها المنطقة العربية ، ولكن كل الباحثين الذين اعتقدوا أن الحراك العربي يتخذ صفة الثورة يصطدمون برؤى وتصورات تصدر عن باحثين آخرين يشككون في هذا التوصيف ويطلقون توصيفات كثيرة عن هذا المشهد منها حالة ثورية وانتفاضة واحتجاجات ... يقول سمير أمين وهو يصف الحراك الاجتماعي في مصر: " تبدو لي الحركة التي أخذت مجراها في المجتمع المصري أواخر يناير 2011 في واقع الأمر انطلاقا ثوريا قد يتحول إلى مد ثوري ، لأكثر . فما حدث هو أكثر من مجرد انتفاضة ، أو فورة يعود بعدها المجتمع إلى ما كان عليه قبلها ، أي أكثر من حركة احتجاج ، لكنه أيضا أقل من ثورة . بمعنى أن تلك الحركة لم يكن لها أهداف واضحة تتجاوز الإطاحة بمبارك، يرجع ذلك إلى طبيعة المطالب الواضحة، والضمنية للقوى التي انخرطت في تلك الحركة وأهدافها "<sup>(3)</sup>.

ينظر هذا التعريف للحراك الاجتماعي في مصر على أنه يتجاوز مفهوم الاحتجاجات والانتفاضات ولكن هذا الحراك ليس بثورة ، فلم تتجاوز حدود التعبير عن معاناتها وظروفها الاجتماعية والاقتصادية والاجتماعية وتفتقر لمشروع اجتماعي بديل للنظام السياسي البائد . ويبدو أن هذه النظرة مستمدة من التصور الماركسي لمفهوم الثورة .

وفي نفس الاتجاه يقول جليبر الأشقر: " إن الثورة السياسية في تونس ومصر لم تمس الجزء الأكبر من جهاز دولة النظام الساقط ... لم يعرف بعد أي من هذه البلدان ثورة اجتماعية ، بمعنى تحول عميق في بنيته الاجتماعية ، ولم تتأثر سوى أقسام متفاوتة الحجم في قمة التراتبية الاجتماعية ، أما التراتبية الاجتماعية ذاتها فلم تتغير في أي مكان ، ومن جانبي ، فقد وصفت الانتفاضات الجارية ، منذ الشهور الأولى لعام 2011 بأنها تشكل سيرورة ثورية طويلة الأمد ، وهي صياغة تتيح التوفيق بين الطبيعة الثورية للحدث وعدم اكتماله "<sup>(4)</sup>.

لا يختلف هذا التصور عن نظرة سمير أمين حيث أن الحراك في تونس ومصر لم تغيرا من بنية النظام السياسي السابق فقد مستا بعض أجزاءه فقط ، فالثورة تغيير جذري لكل البنيات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهذا ما لم يتحقق ليس فقط في تونس ومصر، بل وفي المنطقة العربية التي انتفضت عرفت الحراك الاجتماعي والسياسي.

يبدو أنه من الصعوبة بمكان أن نقيس الحراك العربي الراهن بمقاييس الفكر الغربي وتوصيفاته للوقائع والأحداث في المجتمعات العربية، وذلك لأن وقائعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مرتبطة بخصوصيات ثقافية اديولوجية معينة ، ونعني بذلك أنه من الأليق منهجيا ومعرفيا أن نعيد النظر في تلك المفاهيم والتصورات الغربية، وأن نتحلى باليقظة الاستيمولوجية لتجاوز عقباتها ومن ثمة التأسيس لمفاهيم جديدة نابعة من خصوصيات مجتمعاتنا العربية وليس من خصوصيات المجتمعات الغربية، ينبغي إذن ، أن نستثمر المعارف والمناهج العلمية التي تستجيب لهذه الخصوصيات والتي تملك القدرة المعرفية ومرونتها في تشخيص الأحداث والوقائع بطريقة موضوعية .

وإذا كانت أبرز التساؤلات الملحة في مراكز البحوث والدراسات الاستراتيجية تحاول الكشف عن طبيعة وانتماءات هذه الثورات العربية فإن الأهم - بالنسبة لنا - يتمثل في الإقرار بأن شعوبا مختلفا مكوناها قد انتفضت وصمدت بوسائل سلمية وأزالت أنظمة شمولية، وعبرت عن قدرتها في التغيير والاستجابة للتحديات المختلفة، والمطالبة بحقوقها المادية والرمزية متمثلة في العيش الكريم والسكن والتشغيل والحرية والكرامة، والعدالة الاجتماعية ...

شكلت هذه الشعوب جسدا واحدا وهي تردد شعارها المميز والمشارك " الشعب يريد " وهي الصرخة التي تدرجت من بلد عربي إلى آخر فكان ميلادها في تونس ثم انتقلت إلى مصر وليبيا واليمن وسوريا... واختزلت معاناة شعوب تنتمي لجغرافية حكمتها أنظمة شمولية ومارست عليها أشكالاً مختلفة من الظلم والاستبداد، تلك الصرخة تعبير عن ثقافة شعوب تطمح وتتطلع إلى تغيير أوضاعها وتحسين ظروفها، فهي بذلك تشكل نوعاً أو شكلاً من أشكال الوعي الاجتماعي. يقول عبد العزيز بومسهولي: "إذا ما نظرنا إلى الثورة باعتبارها حدثاً سياسياً واجتماعياً، فذلك لا يعني قط تجريدتها من بعدها الثقافي - الفلسفي، فالثورة من غير أساس فكري ليست إلا هيجاناً غوغائياً أعمى، ذلك لأن الأساس الثقافي - الفلسفي هو روح الثورة الذي يحدد غايتها، أو على الأقل يؤسس مشروعها المستقبلي بالرغم من تباين التيارات والنزعات الفكرية والمذهبية الأيديولوجية التي تتصارع من أجل الانتصار لتوجه أو نزعة معينة، وبالتالي من أجل قيادة مجتمع ما بعد الثورة..."<sup>(5)</sup>.

يبرز هذا التصور علاقة التفاعل والتكامل بين الفعل الثوري وما يحمله الثائرون من أفكار ويركز أساساً على البعد الوجودي الإنساني الذي يرمي إلى تحقيق حرية الإنسان وبذلك تصح الثورة فعلاً ملازماً للحرية ومقاوماً للظلم والاستبداد بمختلف أشكاله.

## 2- تأملات في خصائص الحراك التونسي والمصري :

إذا كانت الصعوبة التي اعترضت الباحثين والمتقنين العرب قد تجلت في توصيف الحراك العربي بأنه ثورات ترقى إلى مستوى الثورات العالمية كالثورة الفرنسية والبلشفية والصينية... بحكم تدخل عدة ظروف داخلية وخارجية إقليمية ودولية... فإنهم على وفاق تام على مجموعة الخصائص المشتركة لهذا الحراك، على الرغم من الاختلاف في انتماءاتهم وتوجهاتهم الأيديولوجية والسياسية.

يتصور هؤلاء المفكرون العرب أن ما حدث في المنطقة العربية من بداية 2011 وبخاصة في تونس ومصر مقارنة بالدول العربية الأخرى مثل ليبيا وسوريا واليمن والبحرين... يرقى إلى مستوى الثورة ويرتكزون في ذلك على مجموعة من المبررات تتمثل في أن الثورتين التونسية والمصرية شاركت فيهما كل الفئات والشرائح الاجتماعية، وشملت كل المدن وأريافها، وتجاوزت خلافاتها الأيديولوجية والسياسية والعرقية والطائفية والدينية، ولم تحاد رئيساً أو وزيراً أو مسؤولاً، ولم تخدما خطب الرئيسين زين العابدين بن علي في تونس وحسني مبارك في مصر الذين دعا فيها إلى محاسبة المعتدين والقصاص من القتلة والوعود التي قدمها حول التنمية والتشغيل والاصلاحات.

هذه الخطب السياسية التي كان يظهر فيهما الرئيسان عبر وسائل الإعلام الرسمية كل مرة ويخاطبان فيها شريحة اجتماعية عريضة من الثائرين التونسيين والمصريين، كانت في حقيقة الأمر تهدف إلى امتصاص غضب الثائرين، وإخماد تحركاتهم الثورية قد لقيت خطاباً شعبياً معارضاً وفي عبارات مختزلة وبسيطة وحازمة لخص الثائرون التونسيون والمصريون مطلبهم في مفردات حاسمة تدل أن القرار الاجتماعي وصل إلى نقطة اللا رجوع وقد تمثلت في عبارات: "إرحل" "الشعب يريد إسقاط النظام". لم يستسغ الرئيسان هذا الحدث ولم يستوعبانه، فكانت صدمة كبيرة لهما وقد تجلت ملامح هذه الصدمة في حالات الذعر الكبير والارتباك التي بدت عليهما وهما يخاطبان المنتفضين في الشوارع يقول السيد ولد أباه: "تحولت النار التي التهمت جسد البوعزيزي إلى حريق شامل جرف البلاد في أقل من شهر بدا طويلاً للرئيس بن علي الذي خرج للشعب مرات ثلاث في التلفزيون الحكومي: اختيار الليونة في الخطاب الأول، وتوعد وهدد في الخطاب الثاني وخلص إلى المصالحة مع الشارع الغاضب في الخطاب الأخير الذي ألقى بعامة مرتبكة في يوم واحد قبل الرحيل المفاجئ"<sup>(6)</sup>.

و يعني هذا الموقف الحاسم الذي اتخذته الشعب أنه يريد رحيل النظام السياسي القائم، وتشكيل نظام سياسي بديل، والانتقال إلى وضع اجتماعي جديد، ولكن يجب التنويه أن هؤلاء الثائرين لم يرفعوا ومن بداية الانتفاضة هذا شعار، بل إن المتتبع للمشاهدين التونسيين

والمصري يدرك أن شعار الحسم برحيل الرئيسين الحاكمين قد مر بمراحل متعاقبة ومتدرجة ، حيث بدأ في البداية بمطالب اجتماعية منها السكن والتشغيل وتحسين الأوضاع المادية والاجتماعية والعائلية ثم تحولت إلى مطالب سياسية داعية إلى تغيير النظام السياسي القائم .

وكان من بين هذه الشعارات : " التشغيل استحقاق يا عصابة السراق " : " يا حكومة عار عار ، الأسعار شعلت النار " " شغل حرية عدالة اجتماعية " . يقول الطاهر لبيب : " فممثلوا الأحزاب يحاولون إقناع الشعب بترك رئيس الوزراء الحالي على أنه لم يكن فاسدا ، ولكن الشعب ما زال حتى الآن يرفض : لا يريدون بقاء رائحة النظام القديم . هي قصورية بمعنى أنها قطعية ، أي أنها تقطع مع كل ما فات ، وهذا هو التعريف الرئيس للثورة .. يضاف إلى ذلك شمولية الثورة، وهذا أيضا عنصر مهم جدا، ومعناه أن المطالب الأخرى والاحتجاجات المختلفة تستقطبها الثورة، وتستوعبها " (7).

وفي نفس الاتجاه يقول محسن البوعزيزي : " الشعار الأول الذي رفع كان حاسما : " التشغيل استحقاق يا عصابة السراق ، هكذا إذن كانت ، كانت منذ البداية تتوجه إلى نظام سلطوي قاهر مستبد بكلمة " عصابة السراق " .. الشعار الذي انطلق في سيدي بوزيد لفت انتباه كل التونسيين إذن .. " (8) .

كما أن الثورتين التونسية والمصرية لم تكن لهما طليعة ثورية من أحزاب وشخصيات ومفكرين من مختلف التوجهات السياسية اليسارية والقومية والإسلامية... لم يكن لها منظورها ، كانتا ثورتان عفويتان وشعبيتان كسرتا ثنائية النخبة والجمهور أو الزعيم والحشد، كان الشعب بمختلف شرائحه في مقدمة الانتفاضتان من شباب وشيوخ وأطفال ونساء وعمال وموظفين ...

كانت الثورتان سلميتان ، لم تستعلا وسائل العنف على الرغم من أنهما تعرضتا لكل أشكال القمع من الأجهزة الأمنية للنظام السياسي ، وتكون بذلك قد أعطيتنا نموذجا جديدا للتغيير يتجاوز الأسلوب الكلاسيكي الذي لجأت إليه كثير من الثورات ، وربما لأن الفائزين كانوا يدركون تماما أن العنف لا ينتج إلا عنفا مضادا، وهذا الأسلوب السلمي في التغيير الاجتماعي يحمل رسالة للرأي العام والمجتمع الدولي مفادها أن الحراك العربي يحمل ثقافة سلم وتمدن وتحضر وأن العرب شركاء مؤثرون في صناعة التاريخ . يقول علي حرب : " إذا كان لكل عصر ثوراته ، فلكل ثورة أساليبها ومفرداتها ، من حيث الأسلوب نحن إزاء ثورات سلمية ، تشتغل بالقوة الناعمة لا بالقوة العارية، كما كان في أمر الثورة في تونس ومصر بشكل خاص ... إذ لم يكن يرد للثورات الجديدة أن تقع في أفخاخ الثورات السابقة التي كان شعارها " العنف قابلة التاريخ " فالعنف خرب الثورات وبدد الأحلام وقوض الشعارات، وهو لا ينتج سوى الدمار المتبادل في عصر الاعتماد المتبادل. وإذا كان للثورات الرقمية دروسا ، فهي تعني بأن الثورة الناعمة والفائقة هي أقوى من الأنظمة الأمنية وأجهزتها المخبرية . وهكذا نحن أمام ثورات لم تصنعها السيوف والرشاشات بل الكتب الرقمية والشاشات الخارقة للجدران الحديدية والعقائد المغلقة" (9).

وكان العنصر النسوي حاضرا بقوة ، فقد شاركت المرأة في الثورتين وتكون بذلك قد دشنت عهدا جديدا وأجرت مكسبا يضاف إلى رصيدها التاريخي ، وتكون بذلك أيضا قد فرضت على النظام الأبوي سلطتها وقدرتها في المشاركة على صناعة التغيير يقول عبد الحسين شعبان : "من معالم الانتفاضات الأخيرة أنها لم تكن ذكورية، بل ساهمت النساء فيها إلى حدود كبيرة، وكان لهن دور بارز في القيادة والإدارة والحضور والمشاركة، ولعل ذلك يمثل رسالة جديدة حدائية لبدأ عهد جديد انتقلت فيه النساء من الصفوف الخلفية المساندة للثورة إلى واجهات الحدث ، لتصدرن المنبر والقيادات، سافرات ومحجبات، مسلمات أو قبطيات، ولا فرق بينهن، فقد وحدهن حب الوطن وشارع بورقيبة وميدان التحرير، وكن جميعهن يرددن الشعارات ذاتها المطالبة برحيل النظام ومحاكمة الفساد" (10).

كانت القوى السياسية خلفها ولم يكن العكس ولكن هذه التلقائية نتاج وعي شعبي تشكل وعبر عن نفسه في اللحظة المناسبة، وهو في حقيقة الأمر يعود إلى خصوصية المجتمع التونسي والمصري الذين تلقى أفرادهم في مراحل تاريخية متعاقبة تكويننا سياسيا واجتماعيا وثقافيا وادبيولوجيا وهذا إنجاز تاريخي ساهم في المواجهة والصمود والقدرة على التعبير ف: "" لم تتحكم الأطر الحزبية التقليدية في مسار الثورة، استندت الثورة إلى أطر مدنية غير مؤدلجة، صرف عن ذلك هم التنازع السياسي، ولعب المجتمع المدني في تونس الدور الفاعل

في تأطير الاحتجاجات ونقلها من مرحلة الفعل الشعبي العشوائي إلى مرحلة الفعل الثوري المنظم، وبمطالب واضحة ومحددة الأهداف ، كان الهدف إسقاط النظام، مع الحفاظ على كيان الدولة التونسية بعدها التاريخي<sup>(11)</sup>.

وينضاف إلى هذه الخصائص المشتركة التي تتقاطع حولها الثورتان التونسية والمصرية الحضور الكبير للفئة الشبابية التي لم تشارك فقط في صناعة المشهد العربي الراهن ، بل ساهمت بقسط كبير في تأطيره وتنظيمه ، لقد كان الإعلام الغربي وساسته يسوقون ويروجون مرارا لأفكار سلبية تجاه الشباب العربي منها أن هذه الشريحة الاجتماعية الكبيرة التي تبلغ ستون بالمائة من العرب تشكل قنبلة ديمغرافية وعبئا اقتصاديا ومخزونا للتطرف، ولكن هذه الشريحة صنعت الحدث العربي الراهن ودفعت بمجتمعاته لتغيير أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وتكمن عناصر قوة هذه الشريحة الاجتماعية ليس فقط في عددها ، بل في قدرتها على استعمال الوسائط التكنولوجية الحديثة واستثمارها في الحراك الاجتماعي والسياسي ، وكانت مواقع التواصل الاجتماعي وبخاصة الفيس بوك تقوم بدور كبير في هذا الحراك فقد كشفت هذه المواقع الإلكترونية الافتراضية زيف الأحداث التي كان ييهاها الإعلام الرسمي والتضليل الذي مارسه للتأثير على الرأي العام المحلي والإقليمي والدولي ، هذا التزييف والتضليل الإعلامي للمشهد الاجتماعي والسياسي قد فقد مصداقيته وتأثيره أمام سلطة الفيس بوك فقد حاول النظام السياسي في تونس ومصر تشديد الرقابة على هذه المواقع الإلكترونية ومنعها بكل الوسائل الممكنة فقد : " بذل الرئيس التونسي المخلول جهودا جبارة لحجب شبكة الفيس بوك ومراقبتها ، إلا أنه فشل في مبعاه ، وكانت نهايته المأسوية على يد الشباب الناقم الذي استخدم الشبكة لكسر الاحتكار الإعلامي والوصول إلى الناس والتعبئة الفعالة للجموع الثائرة . حدثت الظاهرة في مصر وفي بقية البلدان العربية التي وجدت نفسها عاجزة عن احتواء وضبط التدفق الإخباري للفيس بوك والمدى التواصلي الكثيف الذي يفضي إليه"<sup>(12)</sup>.

### 3- تحديات في وجه الحراك التونسي والمصري :

واجهت تونس بعد الثورة تحديات كبيرة داخلية وخارجية منها تنامي حركة العنف المسلح فقد تعرضت كثير من المؤسسات السياحية للتفجيرات منها تفجير متحف باردو الذي أودى بحياة العشرات من السياح الأجانب ، كما استهدفت فندق سوسة السياحي ، وتمت عدة اغتياالات لمدنيين ومواطنين بسطاء بجمال تونس في المنطقة الجنوبية من البلاد... وعودة الكثير من المسلحين الذين شاركوا في الحرب على النظام السوري من سوريا والمنتمين للحركات المسلحة المتشددة منها تنظيم دولة العراق والشام وجبهة النصرة، حيث أحصت الدولة التونسية الحديثة عددا كبيرا من هؤلاء العائدين المتشددون التونسيين.

كما عرفت تونس سفر العديد من النساء إلى سوريا وانضمامهم لهذين التنظيمين المسلحين للمشاركة فيما يسمى بجهاد النكاح ، فقد رصدت بعض وسائل الإعلام والقنوات الفضائية أن مجموعة من النساء التونسيات الملتحقات بالتنظيمات المسلحة بسوريا بلغ 700 امرأة، وبلغ عدد السجينات بتونس 150 امرأة يشكلن شبكات إمداد مادي لوجستي وإعلامي لهذه التنظيمات<sup>(13)</sup>.

وتشهد تونس في هذه السنوات الأخيرة انقساما كبيرا داخل الحزب الحاكم ، حيث شكل بعض المنتمين لحزب نداء تونس الذي تشكل سنة 2012 معارضة تتكون من إثنين وثلاثين عضوا في البرلمان المنتخب كردة فعل على محاولة نجل زعيم الحزب ورئيس الجمهورية التونسية المنتخب باجي قايد السبسي من الهيمنة على قيادة الحزب وقد أعتبرت هذه المحاولة توريثا وتجاوزا خطيرا دفعت ببعض الشخصيات السياسية بالحزب رئيس الجمهورية التدخل لإنهاء حالة الاحتقان التي تعصف بكيان الحزب والتي تسمح للكثلة البرلمانية المنتمجة لحزب حركة النهضة من الهيمنة على سلطة القرار بالبرلمان<sup>(14)</sup>.

ولكن يبدو أن الثورة التونسية لم تنته بعد حيث عرفت مع بداية السنة الجديدة موجة احتجاجات واسعة بعد خمس سنوات من مرور هذه الثورة التي احتفلت بها الجماهير التونسية في جو من التذمر والإحباط من حكومة جديدة ورئيس جديد لم يحقق لهذا الشعب مطالبه التي نادى بها حيث شهدت محافظة القصرين وقفصة وجندوبة وحتى العاصمة التونسية تحركا اجتماعيا للمهمشين من الشباب الجامعيين العاطلين عن العمل واعتبروا في تصريحاتهم أن الثورة لم تنته بعد وانظم لهذا الحراك الاجتماعي والسلمي بعض التنظيمات السياسية والنقابية الفاعلة في تونس منها الجبهة الشعبية والاتحاد التونسي العام للشغل .

إن المتتبع للمشهد التونسي في المرحلة الراهنة يدرك تماما أن الثورة التونسية قد بدأت من جديد ولم تنته عند انتخابات رئاسية وبرلمانية بل إن حدث البوعزيزي قد تكرر من جديد فقد انتحر شاب جامعي متحصل على شهادة جامعية في الميكانيك والكهرباء وحاول شاب آخر الانتحار أيضا لولا تدخل بعض رفاقه، ولا زال المتظاهرون يحملون نفس الشعار الذي حملوه في بداية ثورتهم: "الشغل استحقاق يا عصابة السراق".

تواجه الثورة التونسية أزمة اقتصادية حادة تعتبر البطالة والتنمية في المدن المحرومة أولوية هذه التحديات في وقت صرح فيه رئيس الحكومة من فرنسا على خلفية لقائه بالرئيس الفرنسي أنه لا يملك "عصا سحرية" لحل كل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية دفعة واحدة. هذه النتائج العكسية للثورة التونسية التي عجزت عن حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية المزرية للمواطن التونسي وبخاصة في المناطق الجنوبية، التي لا زالت تنتفض في كل مرة تعبيراً عن معاناتها وبؤسها قد دفعت بعض الباحثين التونسيين إلى التشكيك في قدرة النظام السياسي الجديد على تلبية مطالب الثائرين التونسيين يقول منصف المرزوقي وهو يرصد مسار الثورة التونسية وما يمكن أن يترتب عنها من نتائج سلبية لا تلي مطالب المواطنين التونسيين الثائرين: "بعد الثورين يأتي عهد الانتهازين، وبعد الملحمة يأتي عهد خيبة الآمال، إذ يعود فقراء سيدي بوزيد إلى فقرهم، ويعود سكان المقابر في القاهرة إلى مقابرهم، فلا حلول جذرية لمشاكلهم وإنما كثير من الوعود التي قد تتحقق وقد لا تتحقق. أما من تغنم الغنيمة الكبرى ففي حالتنا هي البورجوازية التي كانت تتنعم تحت الاستبداد بمستوى مادي مقبول، ولكن الاستبداد بقمعه للحريات وبفساده كان يسمم حياتنا، ويتخلص الوطن من الاستبداد، ها هي تضيف - بفضل تضحيات المغلوبين والمساكين - إلى حقوقها الاقتصادية والاجتماعية حقوقها السياسية التي كانت ممنوعة منها، بينما تجد الطبقات الفقيرة نفسها حائزة على حريات سياسية لا تسمن ولا تغني من جوع"<sup>(15)</sup>.

وعلى الرغم من هذه التحديات الداخلية والأزمات الكبيرة فقد استطاعت تونس الجديدة فرض نفسها في المحافل الإقليمية والدولية، فقد أعادت بعد بعض التردد علاقاتها الدبلوماسية مع الدولة السورية وإعادة فتح سفارتها بها، وقاطع مثقفوها ونخبها كثيرا من المناسبات الثقافية والغنية الغربية رفضا للتطبيع مع الاحتلال الإسرائيلي، وعبر شعبها عن انتمائه القومي العربي الإسلامي في تظاهرات احتجاجية على ممارسات المستوطنين الإسرائيليين للعنف بمختلف أشكاله على الفلسطينيين ورفضهم تدنيس المقدسات الإسلامية وخاصة الاعتداءات على القدس والمسجد الأقصى الشريفين.

وإذا كانت النتائج التي ترتبت عن الحراك الاجتماعي والسياسي في تونس لم تستجب لتطلعات الثائرين وبخاصة في شقه الاجتماعي والسياسي فإن الحراك في مصر لم يحقق كذلك أهدافه المنتظرة سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي فلم تنجز ثورة 25 يناير 2011 ووصول الإخوان المسلمين إلى سدة الحكم، ولا حتى ثورة 30 يونيو 2013 التي أطاحت بنظام الإخوان مطالب ملايين المواطنين المتعطشة للتغيير والانعقاد من النظام السياسي الشمولي البائد، وتحسين أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية.

إنه على الرغم من سقوط نظام مبارك فلا يبدو أن مطالب الثائرين قد تحققت، فلم تتشكل الدولة المدنية المنشودة لأن الرئيس الجديد ينتمي للمؤسسة العسكرية ويستمد عناصر قوته منها، ولم تتحسن أوضاع المواطنين الثائرين الذين تشكل أغليبيتهم من فئة الفقراء اجتماعيا واقتصاديا ولم تتخلص الدولة من التبعية الأمريكية ومن بعض دول الخليج وبخاصة المملكة السعودية والإمارات ما دامت تقدم لها القروض المالية لتنمية وتمويل المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية...

وتتشترك تونس ومصر - على حد سواء - في تعرضهما لأخطر تهديد يتمثل في موجة العنف المسلح الذي تمارسه بعض الجماعات المسلحة فلا زالت الدولة المصرية في صراع دائم مع هذه الجماعات المنتمية لما يسمى "أنصار بيت المقدس" التي تنشط في شبه جزيرة سيناء وفي كثير من مناطقها وبخاصة في الشيخ زويد ورفح والعريش... التي تعرف مواجهات دامية بين هذه الجماعات المسلحة والأجهزة الأمنية المصرية المختلفة.

كما أن المسألة الأمنية في مصر وتعقيدها دفعت بالسلطات المصرية إلى اتهام حركة حماس الفلسطينية بالتورط مع هذه الجماعات وغلق معبر رفح الحدودي مع قطاع غزة وهي ليست التهمة الوحيدة الموجهة لهذه الحركة فقد سبق وأن ألصقت بالرئيس المصري المعزول محمد مرسي تهمة التخابر مع إمارة قطر وحركة حماس.

وباختصار ، فإن النظام المصري يعتقد أن هناك تأمر وتنسيق بين نظام الإخوان في مصر وقطر وحركة حماس بقطاع غزة في فلسطين وتركيا، وعلاقة وطيدة بينها وبين أحداث العنف المسلح تمثل بحسب المسؤولين المصريين السياسيين والأمنيين والإعلاميين في تمويل وتدريب وتسليح المتطرفين المسلحين ، وقد ترتب عن العداء بين النظام السياسي المصري وحركة حماس أن قام هذا النظام بإدراج الحركة على قائمة الإرهاب مما دفع بقيادة الحركة في الآونة الأخيرة لزيارة مصر لحلحلة ملف الأزمة عقب اتهام المسؤولين المصريين لحركة حماس باغتيال النائب العام المصري " هشام بركات " .

تعاني الثورتان التونسية والمصرية نفس الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية، التي تدفع بنا إلى القول بأن هاتين الثورتين تخلصتا من نظام سياسي مستبد لتدخلتا في سلسلة أزمات جديدة متعددة ومعقدة لا يمكن حلها وتجاوزها في مناخ إقليمي ودولي متشنج ومتصارع تلعب فيه استراتيجيات المصالح الدولية والإقليمية دورها في خلق كل المعوقات ليبقى العالم العربي متأزما وتابعا للدول الغربية .

#### الخاتمة:

كان الحراك الاجتماعي في تونس ومصر في مراحله الأولى يسير في اتجاه نبئ أن المنطقة العربية مقبلة على تغيير جذري لأنظمتها الشمولية ، وتشبيد مجتمعات جديدة تقوم على التعددية الديمقراطية وحرية التعبير والتداول على السلطة وإرساء معالم ثقافة سياسية تحترم فيها إرادة الشعب في اختيار ممثليه وحكامه، ودفع هذا الحراك بعدد من المراقبين والمفكرين العرب إلى توصيفه بثورات العصر، ولكن وبعد مرور خمس سنوات تبين أن هذا الحراك العربي لم يحقق نتائجه المنشودة على جميع المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

لازالت تونس ومصر تعانيان من الفقر والحرمان والبطالة وأزمة السكن والتبعية الاقتصادية للدول الغربية، وغياب التنمية وبخاصة في المناطق الجنوبية، ولم يتغير النظام السياسي جذريا في البلدين، والأخطر من ذلك فإن ظاهرة العنف المسلح والتطرف الديني تشكلان الحدث الأبرز والتحدي الكبير لهما وللمنطقة العربية برمتها، فلا زالت محافظة القصرين وقفصة وسوسة وبن قردان في تونس وشبه جزيرة سيناء ومناطقها المتمثلة في الشيخ زويد ورفح والعريش في مصر جغرافية شاسعة تنشط بها الجماعات المسلحة وتهدد أمن المواطنين وممتلكاتهم، مما أدى ذلك إلى ضرب العمق الاقتصادي للبلدين الذين يعتمدان على السياحة التي أستهدفت في كثير من الأحيان من قبل الجماعات المسلحة المتشددة ، التي تسمى في وسائل الإعلام والخطاب السياسي الرسمي بتنظيم أنصار الشريعة في تونس وأنصار بيت المقدس في مصر التابعين لتنظيم القاعدة وتنظيم الدولة في العراق والشام .

#### الهوامش:

- 1- محمود حيدر وآخرون ، ثورات قلق . مقارنة سوسيو- استراتيجيات للحراك العربي ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي . سلسلة الدراسات الحضارية، بيروت، ط1، 2012، ص 07
- 2- عزمي بشارة ، في الثورة والقبالية للثورة ، المركز العربي للدراسات والأبحاث . سلسلة دراسات وأوراق بحثية، الدوحة، 2011، ص 47
- 3- سمير أمين، ثورة مصر، دار العين للنشر، القاهرة، ط1، 2011، ص 15
- 4- جابر الأشقر ، الشعب يريد. بحث جذري في الانتفاضة العربية، تر: عمر الشافعي، دار الساقى، بيروت، ط1، 2013، ص 14
- 5- عبد العزيز بومسهولي ، الفلسفة والحراك العربي . تجارب فلسفية جديدة في العالم العربي ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، 2015، ص 34-35
- 6- السيد ولد أباه، الثورات العربية الجديدة، المسار والمصير. يوميات مشهد متواصل، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2011، ص 21.
- 7- طاهر لبيب، المستقبل العربي، بيروت، العدد 385، مارس 2011، ص 101
- 8- المرجع نفسه ، ص 103.
- 9- علي حرب، ثورات القوة الناعمة في العالم العربي، من المنظومة إلى الشبكة، الدار العربي للعلوم ناشرون، بيروت، 2011، ص 30.
- 10- المستقبل العربي، المرجع السابق، ص 93.
- 11- عثمان لحياي، تونس... حالة ثورة. مجلة الديمقراطية والنجاح الممكن ، المؤسسة الوطنية للاتصال ، الروبية ، 2013، ص 35
- 12- السيد ولد أباه، المرجع السابق، 43
- 13- قناة الميادين، نشرة الأخبار، يوم الأربعاء 18 نوفمبر 2015
- 14- قناة الميادين، نشرة الأخبار، 23 نوفمبر 2015
- 15- منصف المرزوقي ، الآفاق المرعبة والمذهلة للثورة العربية ، المستقبل العربي ، بيروت، العدد 386، أبريل 2011، ص 147